

صنعا، في مرآة الغرب

مراجعة حسين عبدالله العمري

« . . حتى أولئك الذين ما زالوا منا يحنون إلى دكريات اوفاب وسيوب- القائظة في رحاب جامع «البكيرية» في صنعاء، والتمشي في الغبار عند الأصيل الى أعناب «الروضة»، لا يكادون يدركون سرعة الخطو التي يبدد بها عالم اليوم نمط الحياة الرتيبة والسهلة في هذه الجنة الجبلية من شبه جزيرة العرب . . »

(من مقدمة اليمن والغرب)

١ - صنعاء في لندن

في أوائل شهر ابريل (نيسان) سنة ١٩٧٦ م كان لي ولصديقنا وأستاذنا القاضي إسماعيل بن علي الأكووع شرف تمثيل اليمن في «مهرجان العالم الاسلامي» الذي عقد في لندن وحضره ممثلون وعلماء من مختلف أرجاء العالمين العربي والإسلامي بالإضافة إلى المهتمين والمختصين من أوروبا وأميركا. وقد افتتحته رسمياً جلالة الملكة اليزابث بخطاب ملكي رصين تحدثت فيه عن الدور الحضاري والانساني العظيم الذي لعبه الإسلام في تاريخ البشرية، وأثر ذلك في تطورها في مختلف المجالات في وقت كانت فيه اوروبا لم تزل سادرة في عصور الظلام والاقتيال - وقبل عصر نهضتها - (ومن ثم استلامنا منها تلك المهمة التي طال حرصنا ونوم شعوبنا عليها - ربما حتى اليوم). وباستثناء كلمة شيخ الأزهر-

المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود التي ألقاها بالمناسبة في إحدى قاعات المتحف البريطاني العريق، فقد ترك المجال (بدون خطابات وهتافات..). للمؤتمرين والزوار ولجمهور المشاهدين والمهتمين من بريطانيين وغيرهم ممن تقاطروا إلى لندن خصيصاً لمعرفة أوجه الحضارة الإسلامية، وإبداعاتها كما تمثلت فيما عرض من آثار وآلات ومؤلفات (مخطوطة)، وفنون، وأنشطة متعددة، جهزت لها معارض خاصة في قاعات «المتحف البريطاني» و«متحف البشرية» بلندن.

ولقد كان لمدينة «صنعاء» مكان خاص، بل أكاد أقول فريد، لأنها كانت مع مدينة «فاس» المغربية الوجه التاريخي والمميز للمدينة العربية الإسلامية التي اختيرت في هذه المناسبة، وإذا كانت «فاس» لم تجد الاهتمام اللائق بعراقتها^(١) فالسبب في ذلك يرجع إلى أن الجناح الذي خصص لها لم يزد على أن علقت على حيطانه بعض الصور والمناظر للمدينة فحسب، في حين ان «مدينة صنعاء» أعدت لها في «متحف البشرية» صورة ناطقة بالحياة وزاخرة بالحياة والحركة فأصوات الباعة وضجيج الأسواق يختلط بضربات مطارق الحدادين في سوقهم، وروائح العطور تعبق مختلطة بتوابل وبخور «المعطارة» في «سوق العطارين» وفي حجرة «المفرج» - بفراشه اليميني وعقود نوافذه الملونة البديعة - كان نغم العود يساير صوت المغني الصنعاني وهو يردد ذلك اللحن الشعبي الأصيل لكلمات شاعر صنعاء الرقيق القاضي عبد الرحمن الأنسي (١١٦٨ - ١٢٥٠ هـ/ ١٧٥٥ - ١٨٣٤ م):

عن ساكني صنعاء حديثك هات وأفواج النسيم

(١) مدينة فاس في المملكة المغربية تشبه صنعاء من وجوه كثيرة. وكانت عاصمة البلاد لعدة قرون. أسسها على الضفة اليمنى من وادي فاس ادريس بن عبد الله (سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م) وعلى الضفة اليسرى منه شيد ابنه ادريس بن ادريس المدينة القائمة عليه يساراً. ولها تاريخ علمي وأدبي زاخر ولا زالت العاصمة الدينية والعلمية للمغرب ومن أشهر مؤسساتها جامعة القرويين التي لعبت دوراً في الفكر العربي والإسلامي وإلى فاس ينسب كثير من العلماء والساسة المشهورين.

وخفف المسعى وقف، كي يفهم القلب الكليم
هل عهدنا يرعى وما يرعى العهود إلا الكريم

٢ - البداوة والحضر Nomad And City

كان جانب «البداوة والحضر» من المظاهر التي قصد بها في ذلك المهرجان إبراز أحد وجوه الحياة العربية الاسلامية، فاخترت البادية الأردنية بمضارب خيامها وبيوت شعرها مشوبة بثغاء الغنم وايقاعات مدقات القهوة على أصوات التهليل والترحيب بالضيف . . . لتمثيل هذا الجانب، كما اختيرت «صنعاء» و«فاس» لتمثيل الجانب «الحضري» للحاضرة أو «المدينة الاسلامية»، واذا لم يكن لفاس أي نصيب يذكر - كما أسلفنا - فلقد كان «جناح مدينة صنعاء» - الذي سبقه اعلانات وملصقات في أماكن كثيرة شاهدناها - من أنجح ما يعد لتلك التظاهرة الثقافية، وذلك للجهود الدؤوبة التي بذها الفريق الذي أعد ذلك الجناح، واستمر في اعداده نحواً من عامين، زار خلالها اليمن بعض مهندسيه وأصحاب فكرته وعلى رأسهم المستشرق الكبير البروفسور روبرت سرجنت Prof. R. B. Serjeant والدكتور لوكوك R. Lewcock بالاضافة إلى خيرة الباحثين النشطين مارثا ماندي (الدكتورة الآن) وروبرت ولسن (الدكتور كذلك) وكلاهما باحث في الشؤون اليمنية بجامعة كمبردج وكانا آن ذاك في اليمن، وآخرين من بينهم شيله وير Shelgh Weir والدكتور بول كوستا P. Costa الذي كان لوضع سنوات مستشاراً لمصلحة الآثار بصنعاء ويعمل حالياً بعمان. لقد تم لهؤلاء دراسة أوجه حياة الناس وطرق حياتهم وسبل معيشتهم، ونظام بيوتهم وأسواقهم، وشكل أزيائهم، بل وأكثر من ذلك فلقد دخلوا الحمامات العامة ومطابخ البيوت «الديم» وحضروا مجالس القات والأعراس وسجلوا الزفة الصنعائية والأنغام الشعبية، والتقطوا مئات الصور والمناظر، ونقلوا معهم ما تيسر لهم (أو قل ما سمح لهم) من أثاث وملابس وأدوات، بل ونوافذ وأبواب خشبية قديمة، وشكلوا من كل ذلك أو من بعضه -

على الأصح - ما أعيد بناؤه وتركيبه في لندن، فكان منه تلك الصورة الجميلة والمصغرة لمدينة صنعا لدرجة أن صديقنا القاضي اسماعيل الأكوح تمنى يومها - بصفته مسؤولاً عن مؤسسة الآثار - لو أن بالامكان نقل ذلك المعرض إلى متحفنا المتواضع بصنعا، أو إقامة مثله، مع أن ذلك لم يتم وهو ممكن جداً، فلن يكلف كثيراً، وقد يغطي بعض قبح وصورة صنعا بوضعها المشوه والمخزن نتيجة الإهمال البالغ حتى اليوم، ولكن لعله من الصحيح ما قيل (بأن ليس في الامكان أبدع مما كان!)

لقد زار معرض مدينة صنعا آلاف كثيرة من الناس وكلما انتهت مدته جددت لفترة تالية حتى تجاوزت العامين نتيجة الإقبال عليه، وانتهى أمره عام ١٩٧٨ م.

٣ - أول كتاب حديث جامع عن صنعا

Sana an Arabian Islamic City

انتهى معرض صنعا، وربما نسيه كثيرون، وبقي البروفسور سرجنت والدكتور لوكوك يتابعان جهودهما السابقة يعملان على انجاز أهم كتاب صدر عن صنعا باللغة الانجليزية مع مطلع الربيع وسيكون فيما نظن أول كتاب في بابه عن تاريخ اليمن وثقافته بأي لغة كانت بما في ذلك العربية، وهو حصيلة وجهود علم الأستاذ سرجنت لسنوات طويلة. وليس الإعداد للمعرض وما جمع له إلا الحلقة الأخيرة في سبيل اخراج هذا الكتاب الذي يصدر عن أمانة «مهرجان العالم الاسلامي». والكتاب كبير الحجم فصفحاته تزيد عن سبعمائة وخمسين صفحة من بينها (١٨٠) خارطة، ورسم توضيحي بالاضافة إلى أكثر من مائة صورة ملونة، وذلك بلغة «الكمبيوتر» نصف مليون كلمة حسبها الناشر وأبلغها للأستاذ سرجنت الذي أنجز العمل في الفهارس المتعددة للكتاب.

إن أهمية الكتاب وفائدته زادت بإضافة جهود أخرى إلى عمل الأستاذ سرجنت وتحريره للكتاب مع زميله، بل وكتابة معظم فصوله باللغة ستة

وعشرين فصلاً. فقد ساهم في كتابة بعض تلك الفصول أساتذة ومستشرقون معروفون من بينهم على سبيل المثال - «البروفسور بيستون A. F. L. Beeston (أكسفورد) الذي كتب الفصل الخاص بصنعا قبل الاسلام، والبروفسور «فالتر دوستال Walter Dostal» (جامعة فيينا) الذي تحدث عن منظمات صنعا وهيئاتها الاجتماعية، والدكتور «ركس سميث G. R. Smith» (جامعة دُرم) الذي بسط تاريخ صنعا الاسلامي الأول مروراً بدويلات وحكام وأمراء العصر الوسيط حتى نهاية الدولة الطاهرية (٩٢٢ - ١٥١٥ م) أي من أول سنة للهجرة حتى سنة ٩٢٣ منها، وقد تلا ذلك مجيء الأتراك العثمانيين للمرة الأولى إلى اليمن، فكتب عن ذلك وأكمل تاريخ الفترة حتى عام ١٩٦٢ البروفسور سرجنت في فصل ثانٍ أناه بالحركة الوطنية والمعارضة لحكم الإمام أحمد حتى قيام الثورة.

٤ - أول أوروبي يصل إلى صنعا

أما الدكتور «بدول R. Bidwell» (جامعة كمبردج) - الذي سيصدر له قريباً كتاب جديد بعنوان «يمنان» - فلقد كتب فصلاً شيقاً وطريفاً استعرض فيه كتابات الأوروبيين عن صنعا منذ عام ٩١٥ هـ / ١٥١٠ م وحتى عام ١٩٦٢، وذلك حين نشر في روما أول الزوار الغربيين لصنعا لودفيكو دي فاريتما Ludovico de Varthema انطباعاته وأخباره عن «المدينة الجميلة ذات الأسوار المرتفعة والبساتين الفيحاء» ومن أخباره عن بيوتها بأنها كانت خمسة آلاف بيت، لكن ذلك النبيل الروماني (نسبة الى روما) وقع في أوهام وذكر خرافات يرى الدكتور بدول بأنه كان فيها إما ضحية أو مروجاً لحكايا وأساطير بعض رحالة ذلك الزمان. ولقد مر نحو ٢٥٣ عاماً تردد خلالها على صنعا حفنة من الأوروبيين في ظروف مختلفة، حتى كان عام ١٧٦٣ حين وصل صنعا أهم أولئك الرحالة وأول رائد حقيقي، العالم الدانمركي كارستن نيبور C. Neibuhr (١٧٣٣ - ١٨١٥ م) الذي دخل صنعا في السادس عشر من يوليو ١٧٦٣ م (لعله الخامس من محرم ١١٧٧ هـ) حيث أمضى عشرة أيام نزل فيها ضيفاً على الإمام المهدي عباس (١١٣٠ - ١١٨٩ هـ / ١٧١٨ - ١٧٧٥ م)،

الذي استقبله بعد بضعة أيام في داره في «بستان المتوكل» حيث كان «يجلس في صدر قاعة كبيرة يحف به أبناؤه وكبار رجال دولته، ويتوسطها نافورة (شَدْرَوَان) يتدفق منها الماء عالياً. . وما أن انحنى (نيبور) ليقبل يد الإمام حتى ضجعت القاعة بصوت واحد، وكذلك خارج القصر، «الله يحفظ الإمام!».

وقد نقل نيبور إلى أوروبا أول معلومات جغرافية وعلمية هامة عن العربية السعيدة ومصر في تلك الحقبة السابقة لحملة نابليون بونابرت على مصر في خريف ١٨٩٨^(٢). وينتهي هذا الفصل عن الأوروبيين بما كتبه صديقة الشعب اليميني ذائعة الصيت الطيبية الفرنسية «كلودي فيان Claude Fayein» عن اليمن ونشرته في باريس سنة ١٩٥٥ م وقام بتعريبه الأستاذ محسن بن أحمد العيني ونشر بعنوان «كنت طبيبة في اليمن» وذلك قبيل قيام ثورة ١٩٦٢ بوقت يسير، وجاءت نهاية الفصل بمقطع مضحك لخص فيه الدكتور بدول ما أطلق عليه «التجربة المحزنة لإقامة الجنرال فون هورن Von Horn» قائد فرقة الأمم المتحدة للسلام، في «دار البشائر» القصر التعيس للإمام السابق محمد البدر، وكان الجنرال ممن عانى الإقامة فيه^(٣).

٥ - فن صنعاء المعماري

إن فصول الكتاب الكثيرة والتي لا تقل فائدة وأهمية أي منها عن غيره لا تسمح في مثل هذه العجالة للحديث الوافي أو حتى مجرد الاستعراض لها - خاصة لو أردنا مناقشة بعض ما يهمننا منها أو التعليق عليه، لكن الإشارة على الأقل لفحوى بعض تلك الفصول، قد يعطي القارئ الكريم فكرة عامة عن

(٢) قام في مصر د. مصطفى ماهر بترجمة الجزء الأول من رحلة نيبور بعنوان «رحلة إلى مصر» بينما كان العنوان «رحلة إلى بلاد العرب» أو إلى العربية السعيدة أو نحوها فغاية الرحلة كانت اليمن عبوراً بمصر.

(٣) نشر الجنرال هورن مذكراته في لندن عام ١٩٦٦ بعنوان:

Soldiering for Peace. London. 1966

وأذكر أنه ترجم إلى العربية قبل سنوات بعنوان «جندي في خدمة السلام»

الكتاب، وهو ما نهدف إليه الآن على أمل فرصة أو فرص قادمة لمثل ما نرجوه. وفي العودة إلى الموضوع نجد دراسة تاريخية للفن المعماري لمباني صنعاء الشاخحة ومساجدها الكثيرة القديمة التي يرجع تاريخ بعضها إلى السنوات الأولى للهجرة، إن الفصل الخاص بهذه الدراسة الموضحة بالرسوم والخرائط والمقاسات قد خرج بها الدكتوران العالمان «سميث ولوكوك» عن إطار الكتابة التقليدية التي يرددها بعضنا اعتماداً على ما ذكره الرازي في «كتاب تاريخ مدينة صنعاء»، أو كتاب «مساجد صنعاء للمرحوم القاضي محمد الحجري» وإن كان هذا القول لا يعني أن هذين المصدرين الهامين أهملها العالمان المذكوران، بل إنهما من مصادر الكتاب في كثير من فصوله، ولكن الجديد هو الطريقة العلمية في تناول هذا الموضوع ووضع المقارنات التاريخية والفنية للبناء والفن المعماري العربي الاسلامي عموماً وما هي المميزات أو الخصائص المحلية، وما مدى التأثير الخارجي، إلى آخر هذا النوع من التساؤلات والاجابة عليه.

إن الاهتمام بتراث المدن العريقة كصنعاء والمطالبة بحمايته وصيانته والابتعاد عن تشويبه سواء بالهدم أو التبديل بالجديد أو الابهمال، أمر لا يزال غير واضح الغاية أو الهدف، ليس عند العامة من الناس فحسب، بل في أذهان كثيرين ممن يحدوهم الطموح بسرعة تجاوز الواقع للحاق بالغرب والتخلص من تركة الماضي التي ليست كلها في الواقع شروراً، وفي هذا الصدد نقل عن البروفسور دوستال ملاحظته لهذه الظاهرة وتحليلها في معرض حديثه عن «الهندسة التقليدية في جنوبي شبه الجزيرة العربية»^(٤):

«ويرافق هذا التشابك الاقتصادي تحولات تترتب عليها تغيرات في الحضارة التقليدية، تغيرات تحترق اليوم أعماق حياة سكان هذه البلدان. وتتلخص المشكلة الأساسية لهذا التحول الحضاري العنيف في تلاشي الذاتية الخلاقية للحضارات التقليدية، وذلك لصالح تقبل بعيد عن النقد لنتاج الحضارة الغربية، وإنه لمن السذاجة بطبيعة الحال أن نعتقد بأن مثل هذا الأخذ والنقل

(٤) (فكر وفن) برن، سويسرا ص: ٥٩ - ٦٢

أمر غير مقبول، ولكن يبدو لي بأن هناك ما يبرر القول بأن عمليات الأخذ والنقل عن الحضارة الغربية يجب أن تتم بوعي ونقد بمعنى تكيف المنقول مع الشخصية الحضارية الذاتية وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالتأكيد عند إنشاء معمل للطاقة النووية، ولكنه قابل للتحقيق في حقل الهندسة المعمارية على سبيل المثال. فما هو التعليل المنطقي للأخذ بالرتابة الجامدة الكثيرة للهندسة المعمارية الغربية عند بناء البيوت الحديثة وإهمال الثروة التعبيرية في الأشكال والزخارف التي تزخر بها الهندسة التقليدية؟ والجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن الانجازات الحضارية للمجتمع الأصلي تسقط نهائياً في طيات النسيان، إما نتيجة للجهل أو ربما بسبب الانسياق الأعمى وراء كل ما هو غربي. . .».

إننا في اليمن بل وفي الوطن العربي كله مطالبون بالتصدي لسقوط ما هو مشرق ونافع من تراث، وثقافة، وفنون تكمن فيها هويتنا وملاحنا، ذلك أن سقوط مدينة أو أرض في يد العدو - وهو للأسف قائم اليوم - أمر يحتمل ويرجى استعادته ولو بعد حين، أما المسخ أو الذوبان في ذوات الغرب أو الشرق فكرياً أو مادياً - وهما متلازمان - فهو بعينه السقوط المميت وبعد النسيان.

٦ - قانون صنعاء The Statute of Sanaa

قام القاضي حسين بن أحمد السياغي، العالم، والفقيه المعروف سنة ١٩٦٤ بنشر «قانون صنعاء» معتمداً على نسختين عنه أقدمهما مؤرخة سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م، وقد وجد هذا القانون نصيبه من البحث والشرح في الكتاب بل وتم ترجمة نصه العربي إلى الانجليزية، وغني عن البيان هنا أن القانون لا علاقة له بالشريعة أو أحكام القضاء، بل المقصود به مجموعة الأنظمة والتعاريف والأسعار ونحو ذلك مما قصد به تنظيم الحياة التجارية والتموينية والضرائبية في صنعاء، وهو قانون بديع محكم متناسب مع ظروف زمانه، وقد كتب بلغة سهلة، صعبة معاً تجلت صعوبتها في معاناة البروفسور سرجنت - والحق معه - في ترجمة المصطلحات والكلمات التي كتبت باللهجة الصنعائية الدارجة وتطرقت إلى

أدق التفاصيل وغرائب المسميات التي قد لا نجد لبعضها ما يقابله في الفصيح وهو ما عمد إليه المشرع بغرض فهم عامة الناس للقانون، أما الناشر القاضي حسين السياغي فقد شرح ما استطاع وضرب صفحاً عن البعض القليل - بالمقارنة - وذلك إما اعتقاداً منه بأنه قد بذل الجهد - وقد فعل - أو حسن ظنه بالقارئ، ولعله لم يكن يدر بخلده بأن عمله سيترجم إلى لغة أجنبية أو أن جيلاً جديداً قد ولد ولم يعد يعرف إلا القليل عن تلك المسميات والمعاني^(٥).

وكيفما كان الأمر، فقانون صنعاء هذا يرجع أصله إلى الإمام المتوكل اسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ / ١٦٤٤ - ١٦٧٦ م) الذي كان أول إمام يحكم اليمن كاملاً بعد استقلاله عن حكم الأتراك، فتم له توحيد من حضرموت وعدن جنوباً ومن حدود عمان إلى حدود الحجاز شمالاً.

وقد جرت على القانون تعديلات - أو زيادات كما سماها القاضي السياغي - تمت بأمر الإمام المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد (١٢٣١ - ١٢٥١ هـ / ١٨١٥ - ١٨٣٥ م). وليس من شك بأن هناك قواعد وأنظمة أو (قوانين) كانت تنظم الحياة التجارية والمدنية العامة قبل هذا القانون - وقبل مجيء الأتراك - وغير قانون صنعاء كانت هنالك قوانين أخرى مشابهة نذكر منها «القانون التجاري» أو «قانون البيع والشراء» الذي صدر أيام المتوكل اسماعيل أيضاً وذلك سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ ليحدد به من جشع التجار «البانيان» الذين غالوا في ثمن أسعار المواد التموينية في صنعاء، ولم يكن ينافس «البانيان» في صنعاء إلا اليهود وعنهما سنتحدث في الفقرتين التاليتين.

(٥) من المؤلف بل والمحسن الطريقة التي نشر بها «كتاب حوليات يمانية» دمشق ١٩٨٠، لمؤرخ صنعاني كتبه باللهجة الدارجة، ذلك أنه لم يتيسر للأستاذ عبد الله الحبشي منح الكتاب ما يستحقه من شرح وإيضاح وتحقيق وفهارس، خاصة عدم معرفته بلهجة أهل صنعاء التي كتب بها الكتاب.

٧ - البانيان والشاعر الهندي

عن طريق «عدن» و«المخاء» و«الحديدة» كان الهنود «البانيان» يأتون إلى صنعاء وغيرها من المدن اليمنية للتجارة والرزق. وقد استوطن كثير منهم في بعض مدن الخليج والجزيرة العربية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه في الفصل الخاص بهم في الكتاب إلى ما قبل الاسلام منذ كانت العلاقات التجارية نشطة بين اليمن والهند. وعندما كانوا يستقرون في بعض المدن كان لهم - كما لغيرهم - أحياء خاصة بهم. ومن أقدم ما نعرفه حيهم المشهور في عدن «حافة البانيان» التي أسسوها سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م، ويبدو أن عددهم قل في عدن بحيث أن الانجليز في استيلائهم على المدينة لم يجدوا فيها إلا ٣٥ شخصاً من البانيان في حين كان عدد اليهود فيها ٢٧٦^(١) لكن هذا العدد تزايد على كل حال في ظل الوجود البريطاني بشكل كبير بما في ذلك سكان المدينة من اليمنيين الذين كان عددهم قليلاً أيضاً.

وفي «صنعاء» كان يوجد عدد كبير منهم يتعاطون التجارة وشؤون الصرافة والمال، وكان بعضهم يقدم تسهيلات تجارية أفضل من اليمنيين أو اليهود، وبحكم علاقاتهم بالهند - وطنهم الأم - ومراكزهم التجارية في المدن البحرية فقد كانوا يسيطرون على أنواع معينة من الأقمشة والتوابل والعطور وبعض المواد التموينية، وقد شكوا اليمنيون احتكارهم وخطر تزايدهم فدفع ذلك الإمام المتوكل اسماعيل إلى اصدار «قانون البيع والشراء» سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م كما سبقت الإشارة إليه، وأمر بأخذ جزية (ريال واحد على كل نفس في العام)، وقد رفض بعضهم دفع تلك الضريبة وفضل مغادرة البلاد إلى الهند. وهكذا تناقص عددهم لدرجة أن (نيبور) لم يجد منهم في صنعاء سنة ١٧٦٣ إلا نحو ١٢٥ شخصاً كانت جملة ضرائبهم «الجزية» ستين قرشاً نحو (٣٠٠ دولار) وهو مبلغ يسير.

ويبدو أن السبب الحقيقي في تناقص مجتمع البانيان في صنعاء (والذي تزايد فيما بعد في عدن) هو الحساسية والمشاعر الدينية ضدهم خاصة من قبل بعض المتعصبين، ففي «طبق الحلوى» للعلامة ابن الوزير^(٧) (١٠٧٤ - ١١٤٧ هـ / ١٦٦٤ - ١٧٣٤ م) اشارة إلى حوادث العامة وشغبهم بصنعاء سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م ضد البانيان وذلك حين شاهد بعضهم أحد البانيان يصلي على صنم له، ومع ذلك فابن الوزير - نفسه - يعزو ما حدث لهم نتيجة «لتغييرهم لقانون البيع والشراء واستعلائهم على المسلمين».

وبعد قرن كامل من تلك الحوادث نجد العلامة ابن الأمير (١٠٩٩ - ١٨٨٢ هـ / ١٦٨٨ - ١٧٦٩ م) تلميذ ابن الوزير السابق وأحد أشهر علماء الزيدية المتحررين يركب موجة العداة ضد البانيان في أكثر من مناسبة، ومن ذلك:

«ارشاده للمهدي عباس إلى إزالة أصنام كانت بيندر المخا لطائفة البانيان، والى البدر (أي ابن الأمير) رسالة في ذلك نفيسة، فبادر المهدي إلى الأمر بإزالتها وهدم بيوتها وقبض جميع أموالها، وقد كان لها مال واسع نحو خمسين ألف ريال، فأخذ وأوصل أحد الأصنام إلى حضرة الإمام، والبدر لديه، فأمر بكسره، وكان في صورة أنثى، فديس بالنعال»^(٨).

ولنا بالطبع أن تصور - والحالة هذه - أن بعض البانيان - كما بعض اليهود أيضاً - قد تحول إلى الاسلام رغبة فيه واقتناعاً، أو رهبة وحماية لمكاسب مادية وبالتالي التَّعَمُّم بالطمأنينة والسلام. ونعرف من أمثال أولئك بعض بيوتات صنعاء كبيت المهدي والهندي والمسلماني والصنعاني وغيرهم، وقد برز بعض من أولئك في مجال العلوم والأدب كشاعر صنعاء المشهور «ابراهيم بن صالح الهندي» (ت ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م) الذي كان والده ممن وصل إلى صنعاء من البانيان ولم يلبث أن أسلم، وحَسُنَ إسلامه، وقد نشأ ولده ابراهيم مشغولاً

(٧) أنظر: مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني للكاتب، ص: ١١٠ - ١١١

(٨) زيارة: نشر العرف: ٥١٩/٢

بالأدب، محباً للشعر، وكان - كما يقول عنه الشوكاني^(٩) - : «أشعر أهل عصره غير مدافع» وكان «يتشبه في مدحه وحماسه بأبي الطيب»، وقد وصفه صاحب «طيب السمر»^(١٠) بأنه كان «روح اللطف إن كان له روح». وله مدائح كثيرة في الإمام المتوكل اسماعيل وابنه علي وغيرهما من الأعيان والكبراء، وقد تقلبت به الأيام وصروف الدهر حتى جاء بآخره إلى باب المهدي محمد بن أحمد (١٠٩٨ - ١١٣٠ هـ / ١٦٨٧ - ١٧١٨ م) - صاحب «المواهب» التي كانت على مقربة من مدينة ذمار -، وكان المهدي قد بلغه أنه قال عنه أشياء، فقال له :

«بأي شفيح جئت؟، فقال له بهذا، وأخرج المصحف من صدره، فقال: قد قبلنا هذا الشفيح، ولكن لا أراك بعد اليوم، فتغيب عنه من ذلك اليوم ولازم العبادة والتزهد، وكان إذا قام إلى الصلاة اصفرّ لونه»^(١١).
وقد حج ، ومات عقب عوده حيث دفن في منتزه الروضة شمال صنعاء.

٨ - يهود صنعاء

معروف أن يهود اليمن جزء من الشعب اليمني عاشوا - وما زال بعضهم يعيش - في جوار غيرهم من اليمنيين من قبل الاسلام وحتى العصر الحديث عندما نشطت الصهيونية العالمية فبدأت تدغدغ أحلام يهود العالم في العودة «إلى أرض الميعاد» أرض فلسطين العربية، وهكذا اهتم أبو الصهيونية المعاصرة «هرتزل» (شخصياً) بعد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ في تنشيط هجرة اليهود من اليمن بعد أن كانت قد توقفت بعض الوقت وذلك كما يذكر «يهودا النبي» - الذي أحسبه يهودياً من أصل يمني - في تقرير قدم لرئيس إسرائيل ونشر عن الجامعة العبرية في القدس المحتلة^(١٢).

وفي الفصل الخاص باليهود في الكتاب نعرف عنهم معلومات كثيرة وبأنهم

(٩) الشوكاني: البدر الطالع ١٦/١

(١٠) أحمد بن محمد الحيمي: طيب السمر: مخطوط المتحف البريطاني: ١/ ق ١٨

(١١) البدر الطالع: ١٦/١ - ١٧ وأنظر نشر العرب: ٢٩/١ - ٤٠

(١٢) The Jursalem Quarterly, 21, Fall 1981, pp.98-99.

كانوا طبقة - أحسن حالاً من غيرهم من طبقات الشعب من بعض الوجوه - وكانوا يزاولون أعمالهم وديانتهم وينعمون بحماية الإمام (الدولة) لهم، وإن ذلك لا يعني أن معاملتهم كانت تتم كذميين وبأن عليهم دفع الجزية لبيت المال، أو أنه لم يكن بينهم وبين الآخرين من بعض المتعصبين من المسلمين خلاف أو حساسية دينية فهذا أمر معلوم كان وما زال في كل بقاع الدنيا حتى يوم الناس. ولعل الغالبية من اليهود ممن كانوا يسكنون مناطق القبائل الشمالية كانوا ينعمون بحرية واستقرار أكثر من إخوانهم في صنعاء وغيرها من المدن لخضوع الأولين لنظام الأعراف القبلية وحقوق الحوار والمساواة وهو ما كان معمولاً به حتى من قبل الاسلام واستمر حتى اليوم، وللتدليل على هذا يخطر في البال الآن تلك الفكاهة الشائعة في اليمن - وهي صحيحة - عن عقد التحالف الذي كان مبرماً بين «بيت بؤس» من المسلمين (نحو ٧ كيلو جنوب صنعاء) وبين جيرانهم من بعض اليهود وذلك بالقول: «اليهودي بوسي والبوسي يهودي!».

إن أهمية الفصل الخاص باليهود يجيء من اعتماد المحرر على مصادر عبرية وأخرى أوروبية حولهم غير ما نعرفه من معلومات في مصادرنا العربية بالإضافة إلى أن الأستاذ سرجنت قد قام بجمع معلومات شفوية ووثائق خاصة متعلقة بهذا الباب، نشرها مع ترجمته لنص مخطوط لما عرف:

«بحدثة اليهود سنة ١٠٧٧ هـ (١٦٦٦ م) لما تكاتبوا بأنه المسيح الدجال قد ظهر وأنهم أعوانه، ثم شرعوا في بيع ما يملكون بدون إذن إمام العصر المتوكل على الله اسماعيل (تقدم ذكره)، وما عوملوا بسبب ذلك...»^(١٣).

وقد غضب على اليهود مسلكهم ذلك فقام الإمام المهدي أحمد بن الحسين ابن القاسم (١٠٨٧ - ١٠٩٢ هـ / ١٦٧٦ - ١٦٨١ م) بإجلالهم من وسط صنعاء وسمي الحي منذئذ «بحارة الجلاء» وخصص لهم حياً خاصاً بهم عرف «بقاع اليهود» (قاع العُلْفِي بعد ١٩٦٢) الذي كان مركز تجارة وحركة حتى

(١٣) اليمن والغرب، أريك ماكرو، تعريب الكاتب، ص: ١٦٩

تركوه وباعوا بيوتهم وكل ما يملكون فيه حين غادروا وطنهم إلى وطن غيرهم بعد عام ١٩٤٨ م.

لقد كان الأستاذ سرجنت يكتب في فصل اليهود منذ نحو ثلاث سنوات حين كنت معه طالباً في جامعة كمبردج وقد ذهب وقتها عن بالي أن أذكر له أن هنالك وثيقة يهودية أرسل بها - كرسالة - من فلسطين أحد أعيان اليهود إلى الإمام يحيى حميد الدين في آخر أيامه يشكو فيها ومن معه من يهود صنعاء ما يلاقونه من شظف العيش على أيدي المستعمرين اليهود القادمين من المغرب، وقد تحسر اليهودي في رسالته متذكراً الأيام الخوالي في الوطن وما قاله للإمام: «بأنه يا مولانا لم يعد هناك يهودية أو اسلام إلا في اليمن»^(١٤).

٩ - المال والطعام والأزياء والألعاب

إن فصول الكتاب طويلة ولا زال هنالك فصول وفصول لا أظن أن بالإمكان التطرق إليها جميعاً أو حتى إعطاء أي منها حقه، ولكن حسبنا التنويه - على الأقل - بما كتبه الدكتور لويك N. Lowick عن «العملة والمسكوكات» وذلك منذ تأسيس «دار الضرب» بصنعاء على يد واليها محمد بن خالد البرمكي سنة ١٨٣ هـ / ٧٨٨ م^(١٥) حتى العصر الحديث، كذلك الأمر بما كتبه الدكتورة مارثا ماندي Martha Mundy عن أزياء صنعاء وملابسهم منذ عام ١٩٢٠، أي من بعيد الانسحاب التركي من اليمن حتى الآن، والفصل الخاص بالألعاب الأطفال وأنواعها وعن ذلك السر العجيب الذي تظهر فيه وتختفي بعض تلك الألعاب باختلاف فصول السنة، ولقد اختفى أو تلاشى معظم ألعاب الفتوة والمسابقات وحل بدلها بعض الألعاب الحديثة ككرة القدم أو نحوها مما يمارسه الأولاد والبنات في المدارس، لكن العاباً وهوايات جديدة انتشرت في السنوات

(١٤) نص الرسالة الوثيقة بحوزة الأخ الأديب الأستاذ القاضي علي بن أحمد أبي الرجال وكان مشكوراً فقد تفضل منذ سنوات بإعطائنا صورة عنها مع أمور أخرى وهو من المهتمين بالتراث والثقافة اليمنية ولا يألو جهداً في هذا الصدد.

(١٥) أنظر تاريخ صنعاء للرازي بتحقيقنا، الطبعة الثانية ص: ١٠٦

الأخيرة في المقاهي ومداخل الحارات يشكل بعضها خطراً على الناشئة ويضيع أوقاتهم .

ولعل من أمتع الفصول الأخيرة هذه ما كتب عن الطعام و«المطبخ الصناعي» ذلك الفصل الذي مُهّد له بقول لسان اليمن الهمداني: «بأن لهم (أهل صنعاء) صنائع في الأطعمة التي لا يلحق بها أظعمة بلد..»^(١٦).

وقد تدرج الفصل في تفصيل أنواع الأطعمة وطرق طهيها ومناسبات بعضها بل والأتيكيت وعبارات المجاملة والدعاء التي يرددّها الناس على مختلف طبقاتهم وجنسهم حين الطعام أو بعده.

(١٦) صفة جزيرة العرب، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوخ الحوالي، بيروت ١٩٧٤، ص:

٨٢، وأنظر - كذلك - : ٣٥٦ - ٣٥٧

فوصف الهمداني لالسوان (الحساء واللحوم والخبز والألبان ومشتقاتها من أجبان والحلويات والمشروبات عند أهل صنعاء) وصف عالم خبير لا نظير له .